

المبحث الأول

الأدب - الفن - الحرية

الأدب - بمفهومه الجوهري الأصيل - هو التعبير الفني الإبداعي عن موقف الإنسان ورؤيته لمشكلات الحياة وقضاياها، وتصويرها، وتلمس أساليب مواجهتها، والكشف عن الإمكانيات التي تنطوي عليها الطبيعة الإنسانية، والأدب بهذا الاعتبار يقوم بدور إيجابي نشيط في التعبير عن وجهة نظر الأديب المبدع في العديد من الأمور، وتسجيل أحاسيسه ومشاعره إزاءها .. وهكذا يسهم الأدب بقدر كبير وحظ موفور في الاتجاهات الفكرية، وترسيخ القيم السلوكية والأساليب الحضارية ونشرها بين الناس، وكلما كان الأديب مدركاً للمثالية الأدب، فاهماً لقيمته وأهميته، واعياً بمجتمعه، أميناً على القيم والمبادئ، حريصاً على الحقيقة والجوهر، بعيداً عن الزيف والضلال، كان أدبه في صالح الجموع الإنسانية التي تشاركه الحياة، وتأثر به في حياته وبعد وفاته<sup>(1)</sup>.

وقد اختلف معنى الأدب من عصر إلى عصر، وإن ظلت محاوره الإنسانية تدور في إطار من الرفعة والعلو والتسامي، تبلورت جميعها في وظائفه النبيلة، وهي "التهذيب والخلق والتعليم"<sup>(2)</sup>.

وهكذا تبدى لنا أن "الأدب في أبسط تعريف، هو التعبير الجميل عن الخاطر النبيل، والخواطر النبيل لن ينحط إلى إسفاف

(1) د. عبد الله حنين : مقال بعنوان : ( أزمة الأدب وحرية الإبداع ) ، صحيفة الأهرام : 2001/3/2.

(2) انظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 16 وما بعدها.

مبتذل، لأن لكل إنسان مطامحه التي ترتفع به إلى السمو، والآثم حين يقارف الخطيئة لا يخلو من وخزات نفسية تعاوده، لأنه في قرارة نفسه يعترف بجرمه، والعربي القديم في صحرائه الممتدة وقراه المتباعدة كان يرتفع بنفسه عن التبذل، فلديه مجموعة من الأخلاق الفاضلة تأمره بالنجدة والكرم والشجاعة والعفاف، ومن هنا لم نجد في الشعر الجاهلي أثراً للغزل بالمذكر، لأن الطبيعة الفطرية للإنسان السوى تنأى به عن الانحدار، وقد كذب أبو نواس حين قال :

لو أن مرقشاً حياً تعلق قلبه ذكراً (1)

والناظر فيما تبذعه النفوس وتخرجه للناس، يجد أن الإبداع نتاج القرائح، وجنى العقول، إذ هو عصارة ذهنها المتقد، عبر بصيرتها النافذة، وشفافيتها الثاقبة، هو قيس من أشاتها المتناثرة، بفيوضاتها المتجدرة، في عالمها الخبيء، منحرجة رؤيتها هي، قبيحة كانت أو فاضلة، راقية سامية، أو عريضة جاهلة، هي رؤية خاصة، تجسد هذا كله عبر بصيرتها هذه، وصيرورتها في آن، الفاجرة منها والمؤمنة على السواء .

يقول ابن حزم الأندلسي: "ليس من الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصي، إلا نفاً النفس وأنسها، فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات، ونفرت نفسه من الرذائل والمعاصي، والشقى من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي، ونفرت من الفضائل والطاعات، وطالب الشر متشبه بالشياطين، وطالب اللذات متشبه بالبهائم" (2).

(1) د. محمد رجب اليومى : مقال بعنوان: (ظاهرة الأدب المكشوف في كتب التراث) مجلة الأدب الإسلامي، العدد الخامس، فبراير 1995، ص 25.  
 (2) ابن حزم الأندلسي : الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ط ثانية، تحقيق وتقديم د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، 1992، ص 96.

وهكذا تبين تلك الأنفس عن عالمها، وتستكشفه خلال بيئاتها وتعبيراتها الدالة على هذا العالم، فالسامي يستمد من السموم، ونقيضه يستمد من الانحدار والتفوق والهزيمة، هزيمة النفس واستلابها، واستهجائها لموروثات الجلال الأعلى، دون الأدنى، فالقيم تستمد من السماء، ولا يستمد منها إلا الراقى والأعلى والسامي، في حين يأتي المسف من الإسفاف، والمنحدر من الانحدار.

غير أننا "نقف الآن أمام نظرتين مختلفتين للجسد، نظرة موروثية تقابل بين الجسد والروح، فالجسد يعنى المادة، والشهوة، والخطيئة، والجهالة، والظلمة، والأرض، والعدم، والروح تعنى العكس، فهى العقل، والعفة، والنور، والسماء، والخلود..."<sup>(1)</sup>.

والجسد بوصفه حاملاً للذات الإنسانية قد حظى بشيء من الاهتمام عبر الثقافات والحضارات، في موازنة بينه وبين الروح، إذ استطاع الفلاسفة أن يدلوا بدلائهم في هذه المسافة المتخيلة بين العالمين، عالم المادة بما به من تجسيد وحضور، وعالم الروح وما به من غيبات وتجلي، ولربما كان هذا العالم أكثر رقيًا وخيالًا، نتيه فيه بوجودنا، بين الرغبة والرغبة، بين التسامي والشهوة، بين الواقع والخيال، بينما نضل طريقنا أحيانًا في عالم الحضور والشهادة، بما به من مكدرات الحياة الجاهلة ورعونتها. والعلاقة بين الفن والأخلاق علاقة قديمة، قدم الإبداع ذاته، إذ هما صنوان، يتصارعان في محراب واحد، فكما زخر العالم (قديمه وحديثه) بالمصلحين والكهنة ورجال الدين، فقد زخر

(1) أحمد عبد المعطى حجارى مجلة إبداع (المقدمة)، العدد التاسع، القاهرة،

كذلك بأصحاب المنون والزندقة والتحلل والفجور، والخروج  
عما ألفتة الفطرة والطبائع الإنسانية الراقية.  
ومن ثم ، فإن الكلمة المبدعة ظلت تتقاذفها هاتان الرؤيتان،  
عبر عصورها جميعاً.

تقول الدكتورة أميرة حلمي: "وما لا شك فيه أن الفن  
الخالق، لا بد له من الالتزام بقيم الحق والخير، ولكنه ليس دعوة  
ولا دعاية أو موعظة، فهناك فرق كبير بين الفنان والواعظ،  
ولهذا تدور جملة أسئلة حول هذه المشكلة.. كيف يرتبط الجمال  
الفني بالخير الأخلاقي دون أن يتحول إلى وعظ أو إرشاد؟ وما  
هي صلة الفن بالأخلاق؟ ويعرف كل من اطلع على تاريخ  
الفلسفة القديمة، أن أفلاطون هو أول من دعا إلى هذا الرأي،  
الذي يجعل الفن في خدمة الحياة الاجتماعية والأخلاقية، بل لقد  
ذهب هذا الفيلسوف إلى ضرورة رقابة الدولة على كل ما  
يعرض على النشء من فنون، كما دعا إلى استبعاد كل الفنون  
التي تخل باتزان النفوس، أو تشيع انحرافاً في المجتمع"<sup>(1)</sup>، إذ  
"الفن ليس مظهرًا روحياً أو مادياً فحسب، وإنما هو مظهر  
اجتماعي أيضاً، يستمد وجوده من حاجة الناس إلى اجتماعهم،  
فهو استجابة تلقائية لمظاهر الوجود في شكل جماعي"<sup>(2)</sup>.

والحديث عن هذه العلاقة حديث ممتد، لا ينتهي بانتهاء  
الناس وأزمانهم، إنما تتناقله الألسن، وتتنازع العقول والأفهام،  
فهذا ينتصف للفن، وذلك ينتصف للأخلاق، وآخر يوازن  
بينهما، في معزوفة طويلة، تبلورت جميعها في (نص واحد) هو

(1) فلسفة الجمال المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

1985، ص 66

(2) د عبد الفتاح الديبدي فلسفة الجمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

القاهرة 1985، ص 21

إبداع البشرية عبر عصورها وأحقابها، القريبة والبعيدة على سواء.

يقول إليوت: "حينما نقرأ العمل الفني، يجب أن نرجى العقيدة والشك، ويقول أيضاً إن هناك لذة واضحة في تمتعنا بالشعر كشرع، حينما لا يشاطر القارئ الكاتب معتقداته"<sup>(1)</sup>.

كما يضيف: وفي مكان آخر "ليس الشعر بديلاً للفلسفة، أما اللاهوت أو الدين فله وظيفته الأساسية، وهي ليست فكرية، وإنما وظيفية، إن الشاعر يكتب الشعر، والغبي يشتغل بالغبية، والنحلة تصنع العسل، لا يستطيع المرء أن يقول: إن الواحد من هؤلاء يعتقد، فهو يعمل فقط"<sup>(2)</sup>.

ثم يقول جيروم استوليز: "الفن لأجل الفن" فالفنان ذو النزعة الجمالية "بمعزل عن الخير والشر" وهو يتذوق المتعة الانفعالية المثيرة للخيال في التجربة، وفي كل تجربة، أما الاعتبارات الأخلاقية فهي ببساطة خارجة عن الموضوع"<sup>(3)</sup>.

بينما يقول كروتشي: "إن استقلال الحقيقة الجمالية وانفصالها عن القيم العلمية الأخلاقية يؤكد أكثر من ظاهرة، فلو كانت القيم الأخلاقية تؤثر في تقديرنا للعمل الفني، لما قرأ المسيحي المتدين كتاب الإغريقي الملحد، وبنفس الطريقة لو كانت القيم الاقتصادية تتدخل، لما قرأ الشيوعي كتاباً رأسمالياً أو العكس"<sup>(4)</sup>.

(1) نقلاً عن: د. عبد العزيز حمودة: علم الجمال والنقد الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص 85.

(2) السابق والصفحة.

(3) النقد الفني دراسة جمالية فلسفية ت: د. فؤاد ذكريا، طبعة ثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1981، ص 540.

(4) نقلاً عن السابق، ص 84.

ثم يضيف الدكتور عبد العزيز حمودة: "وهذه النقطة من أهم النقاط التي أثرت في النقد الحديث، فلو كانت الحقيقة الجمالية أو العمل الفني مرتبطاً بالغايات الأخلاقية والعملية، لكان تقبلي واستجابتي للعمل يرتبط أساساً بمذهب الكاتب ومبدهه وطريقة حياته وقيمه، لو كان العمل الفني من واجبه ومن مقاييس نجاحه قدرته على دفعي لعمل شيء ما، لوجب أن أتفق مع الكاتب فيما يعتقد، إذ كيف يدفعني إلى الصلاة ملحد؟ وكيف يحضني على السلوك القويم من لا أخلاق له؟ وكيف يقودني إلى سلوك اقتصادي معين من أختلف معه في مذاهبي الاقتصادية؟ لو كان الارتباط موجوداً لأصبحت عقيدة الفنان وعقيدة القارئ، من أهم العوامل في تقييم العمل الفني، وعليه "فإن الكوميديا الإلهية، والفردوس المفقود وقصائد "دون" الإلهية و"برمسيوس طليقا" سوف تبدو مختلفة عند القراء الذين يعتقدون، والذين لا يعتقدون في عقائد وآراء مماثلة"<sup>(1)</sup>.

وهكذا تتعالى الدعوات باستقلالية الفن، وعدم ارتباطه بالقيم الأخلاقية والدين، بل حتى بنفسية صاحبه ومبدهه .

ومن ثم، فإن هذا الموضوع، هو موضوع قديم حديث، إذ إنه سيظل ثمة قطبان متنافران أحياناً، متلاقيان في أحيان أخرى، وكأنه لا يكاد يلمس أحدهما الآخر، ما دام ثمة عقل مبدع، ولم يقتصر هذا على ثقافة بعينها، بل يعد هذا من سمات الأدب والإبداع الإنساني جملة.

غير أن الأدب المكشوف تدور رحى معاركه بين الناس، حتى في أكثر البيئات تحيزاً له، إذ يقول كولن ولسون: "لا تزال المعركة قائمة حتى في الغرب بين الفن والأخلاق، وقيم الأدب

(1) نقلاً عن: السابق والصفحة.

والجنس ونشره، فمع الإباحية وحرية النشر المعهودة في بلاد الغرب لا يلقي قبولاً على إطلاقه، بالإضافة إلى أن الهدف هو هدف مادي بحت، فأدب الجنس من هذا المنظور هو أدب للربح والمال<sup>(1)</sup>.

وإذا كان البعض يرى في الأدب الجنسي شراً، فربما رأى البعض الآخر فيه خيراً أو أخلاقاً، إذ يعده البعض نوعاً من التنوير، ونوعاً من بيان الداء، حتى يكون الدواء، والعلاج، إذ يعتقد جيروم استوليتز "أن الفنان يكشف لنا عن وجه الشر، ولكنه لا يفعل ذلك إلا لكي يبين لنا مدى قبحه"<sup>(2)</sup>.

إذ يرى أن التعبير عن الرذيلة وتبائها، قد يؤدي إلى النفور منها واحتقارها، فيقول: "إذن لاستطعنا أن ندرك إلى أي حد يعد العمل أخلاقياً بحق"<sup>(3)</sup>.

وعلى هذا يرى، أن قصائد الشاعر الفرنسي بودلير "أزهار الشر" Les fleurs du mal والتي تحفل بأوصاف السلوك الجنسي الشاذ، والتي حوكم بسببها سنة 1857، تحمل قيمًا أخلاقية، إذ يضيف: "لكن بعد ذلك اتضح أن الكتاب أسفر عن أخلاقية هائلة"<sup>(4)</sup>.

غير أن ذلك إذا كان يصدق بمثال، أو بأمثلة كثيرة، فإنه لا يشكل قاعدة أو أساساً عاماً يمكن أن يُعَوَّلَ عليه، إذ نعود إلى نية الكاتب عند تقديم أعماله، والكيفية التي يتم بها ذلك، وما يتوصل به من تقنيات، تصل بالمتلقي في النهاية إلى الرفض أو

(1) مقال بعنوان: (الرواية ومعركة الأدب الجنسي)، ترجمة: أحمد عمر شاهين،

مجلة إبداع، العدد التاسع، القاهرة، ص74.

(2) النقد الفني دراسة جمالية فلسفية: ص539، 538.

(3) المرجع السابق والصفحة .

(4) نفسه والصفحة .

القبول، بما يجرنا إلى استبطانات لا يمكن الجزم بها .  
غير أنه سيظل الوقوف أمام ما يسفر عنه هذا اللون من  
الكتابة - عبر التعبير الحر الذي لا يعبأ بمفرداته السافرة التي  
يلقيها على الناس عارية من الحياء - هو كل ما يشغل بالنا،  
حتى لو أدى إلى أخلاقية كما يقول جيروم استولير، وإن كنا  
نتفق معه فيما يقول أحياناً، إلا أننا لا نفر بما تصدمنا به مفردات  
عابثة، وعبارات خادشة، يمكن أن نجد ذات المعنى في غيرها .

وهكذا "نرى الكتاب (البورنوجرافيين) يدافعون عن تلك  
الكتابات التي يطلقون عليها اسم الأدب .. يدافعون عنها بحجة  
واهية.. هي أهم أمناء في تصوير الحياة كما هي، ثم يعززون هذه  
الحجة بأخرى .. وهي أن الفن يجب أن يستقل عن الأخلاق،  
فالفن عندهم شيء .. والأخلاق شيء آخر" (1).

وربما دعا هؤلاء إلى حرية الأدب والأديب، وعدم تكبيل  
الكلمة المبدعة، غير أن البعض قد اتخذ من الحرية باباً إلى مبتغاه،  
فتجاوزها بمسافات ، مفرغاً كتاباته وكأفها شواظ تصدم  
حياء الناس، وتلطخ وجه الفضيلة، ولكن أية حرية هذه التي  
نتكلم عنها؟؟ "أهي حرية الشراد والجموح؟ كما يقول الدكتور  
عبد الله حسين، أم حرية البذاءة والإفساد؟ أم حرية المراهقين  
الكبار؟ كلا .. لا هذه، ولا تلك، ولا ما بينهما.. إنما هي الحرية  
البيضاء النقية التي لا تشوبها شائبة، ولا تعترتها ذرة من دنس..  
إنها حرية أهل الحق والصدق والإخلاص والوفاء والالتزام..  
ومثل هذه الحرية لا يمكن أن تنحني أو تنهزم مهما يكن جبروت  
الاستبداد ، وعسف الطغاة ، ولذلك فإنها تمد الأدب المخلص

(1) فتحى الإيبارى : الجنس والواقعية في القصة: الدار القومية للطباعة والنشر  
- القاهرة (د.ت)، ص39.

بإمكانات فريدة، وقدرات عجيبة على الإيحاء والتوجيه والتأثير والبقاء.. وهكذا عرف العالم - رغم أنف الاستبداد والظغيان - أدب فولتير، وجان جاك روسو ومونتسكيو، ودستوفسكي، وتولستوي، وتشيكوف، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، والبارودي، وعلي يوسف، وعبد الله النديم، وبرم التونسي..<sup>(1)</sup>

وقد يظن ظان أن الدين في عدااء مع الفن، وأن الأخير لا يخدم الأول، غير أن العصور الإنسانية تنفى ذلك، إذ كان الفن في كسل عصوره ميداناً للدين، وذوذاً عنه، بل إن كثيراً منه قد نشأ وترعرع في أحضانه، ومع ذلك كان ثمة أفكار ورؤى تطفو من آن إلى آن، وإن اتسمت بالنظرة الأحادية المغلقة، ولم تصل أبداً إلى كونها ظاهرة، أو حكماً قاطعاً يمثل رأياً جماعياً متحضراً. تقول الدكتورة أميرة حلمي: "ولقد تعرضت بعض الفنون لهجوم المحافظين والمتشددين، فوصف الغناء والرقص في بعض المجتمعات بأنهما من الفنون التي لا تنطوي على احترام الوازع الديني أو الأخلاق، لكن ما أبعد هذا الادعاء عن الحقيقة! فالواقع أن الفن قد ارتبط بالدين والأخلاق منذ أقدم العصور، ففي حياة البدائيين وفي كثير من شعائر الأديان لمسات من الإحساس الفني وصور جمالية لا يمكن إنكارها، ومن أمثلة ذلك فن الرقص الذي نشأ عن طقوس البدائيين الدينية، أما فن المسرح، فقد تطور عن عبادة الإله ديونوس إله الخمر في اليونان، وتأثرت الفنون المختلفة في البيئات الإسلامية بخصائص مستمدة من التعاليم الإسلامية، وارتقت الموسيقى الغربية والغناء داخل الكنائس في أوروبا، وتبين لنا مما تقدم أن الدين

(1) مقال بعنوان (أزمة الأدب وحرية الإبداع) صحيفة الأهرام 2001/3/2 م.

والأخلاق والفن كلها ظواهر لا تتعارض فيما بينها، بل هي ظواهر مرتبطة ببعضها، وواضح أيضًا أن الاعتراض على الفن باسم الأخلاق أو الدين أو المنفعة العملية، إنما هو اعتراض لا يعتمد على أساس من التفسير العلمي لتلك الظواهر<sup>(1)</sup>.

وهكذا لا ينفصل الدين عن الفن، أو الأخلاق، ولكن أي فن، وأية أخلاق؟! إنه الفن الذى يبني ولا يهدم، والذى يعبر بالسامى والأعلى، على حساب الأدنى والمتدن.

إنه الفن المتكامل، الذى لا ينظر إلى الوجود نظرة خاصة، تمثلها الشهوة الحيوانية وحدها، تلك الزاوية الضعيفة، زاوية الحيوانية والبهيمية الساذجة، دون أن يربطها بالسمو والعلو والرقى والرفعة، فى إطار من جمال الفن والخلق والإنسانية، جمال الكون والوجود والطبيعة والفطرة، هو جمال واحد ممتد لا ينفصل ولا يتوحش، ولا ينبو عن الطبيعة الإنسانية وسموها، هو جمال الروح والطبع والنفس، ينظر لهذه الغريزة فى جمال وجلال فى آن، هنا لا إسفاف ولا تدن، بل رفعة وجمال واستعلاء، يتطلع إليها فى كمالها مع كمال الإنسانية وتحضرها، فيرتفع بها من دركات الغريزة إلى جلالها، فإذا وصل إلى تلك الغاية، سمت به النفس محلقة بين عوالمها وأكوانها.

إن وجه الخلاف هنا، كما كان فى عصور سابقة، هو الكيفية التى يقدم بها الفن، والأمر إذن فى أدوات التعبير وأنساقها، وآليات الكتابة وتكنيكاتها، فلا صدام إذن بين الفن والدين، أو الفن والأخلاق، ما دامت النفوس ترتضيه وتقبل عليه، ولا تخجل من مصافحته أو عرضه أو تلقيه، فإذا دعت الحاجة إلى التعبير عن شيء من هذا يتطلبه السياق والموقف والحدث،

(1) لفلسفة الجمال: ص 70.

فليكن بالكناية والرمز، وقد يؤدي المعنى أكثر من المباشرة، وذكر الأشياء كما هي، إذ يجعل مساحة للخيال والتصوير والجمال. يسرح فيها القارئ بوجوده، فيؤدي وظيفتين في آن: التبليغ والجمال، جمال التصوير، وجمال اللغة، جمال الفن وجمال الأدب، هنا لا تعارض أو قطيعة، وإنما فن وأخلاق وجمال .

## - 2 -

لقد دار الكلام كثيراً حول حرية الكاتب وحرية المتلقي، وهل هذه الحرية محددة بمعايير؟! أم أنها حرية لا تحدّها الحدود، ولا تقف أمامها العوائق؟! أم هي حرية تفرضها النفس وتطلق عنانها، فلا تكبح جماح شهوة التعبير فيها أو تقيدها، حتى لو كان ثمة تجاوز يصطدم بالآخرين ويختلف معهم، من حيث العقيدة أو السلطة أو الفكر، أو "الإيديولوجيا" بوجه عام؟! .

وبداية نقول: هل الكاتب حر فيما يكتب؟ وهل نتاجه مهما كان تجاوزه يعبر عن ذاته هو بعيداً عن مجتمعه وطبقته؟ أم أن الأمر غير ذلك؟ والإجابة على هذا تكمن في عناصر شتى، غير أنها لا تتفق فيما بينها. ولنفرغ من هذا كله إلى صيغة أخرى لذات السؤال، لمن يكتب الكاتب؟ هل يكتب لنفسه وحسب؟ أم يكتب للآخرين؟ أم أنه يكتب لنفسه والآخرين؟ على اعتبار الصدق الفني والتجربة المعيشة.

لما لا شك فيه، أن الأديب أو الكاتب عندما يكتب فإنه يكتب لنفسه أولاً، ثم يكتب ثانياً للجماعة التي يعيش بينها، إذ هو ذاتي التركة في المقام الأول، موضوعيها في المقام الثاني، فإذا كان الأدب الذاتي - أو الذاتية في الأدب - هو حديث النفس ومناجاتها، فإن الأدب الموضوعي يتعدى ذلك إلى الجموع، وإذا كان الأدب

الذاتى، هو أدب الذات المبدعة، وهذا لا شك فيه، أى إنه رومانسى الرّعة والهوى، فهل الأدب الموضوعى يخلو من هذا؟.

والإجابة على هذا من جنس المعنى وأصله، بل تتلاقى هذه الإجابة ذاتها مع الشق الأول وتتآزر معه فى جلاء، فالموضوعى ذاتى أيضاً، خرج من ذات مبدعة، انفعلت وتأثرت به بداية، ثم تعداها إلى الجموع التى هو صورهما.

وهكذا فإن كل أدب هو أدب الذات التى أبدعته، غير أن تصنيفه يختلف تبعاً للطريقة التى تسرد بها هذه الذات، والمادة التى تقدمها.

السرد الذاتى إذن: هو السرد الذى يقدم العالم الداخلى أو النفسى للكاتب، هو أدب يهتم ببواطن الشخصية، إذ يتم سرد محتوى وعيها (ذكريات، أحلام، مشاعر، أوهام) وهذا ما يندرج تحت رواية (تيار الوعى) وهذا كله كتابة ذاتية، لأن ثمة عناصر من السيرة الذاتية للكتاب تتسرب إلى بنية الرواية، لأن وعى كل شخصية يرتد إلى مصدر أصلى هو وعى الكاتب، ويقدم المحتوى الداخلى باستخدام تقنيات منها: حديث النفس (المونولوج الداخلى) - المناجاة.

كما أن هناك السرد الذى يقدم شخصية تعاني من عقدة نفسية (السراب) مثلاً، أو ذلك الذى يحلل أفكاراً شخصية (أعمال دستوفسكى).

وبهذا المعنى تعد الرواية الرومانسية فرعاً منه، لأنها تقيم بالعالم الوجدانى والباطنى .

أما السرد الموضوعى ، فهو السرد الذى يعتمد على تقديم الفعل الخارجى للشخصية وحركتها فى المحيط الاجتماعى، مثل السرد الواقعى .

ومن ثم فإن الاتجاهات الروائية الحديثة لا تفصل بين الاثنين إلا نادراً.

وسواء أكان الأدب ذاتياً أم موضوعياً، فإنه يبين عن فكر الكاتب الذى يعيش أرق الالتزام والموقف الذى يفرضه عليه ضميره وخلقه، نحو نفسه أولاً، ومجتمعه ثانياً.

إذ الكاتب كما يقول جان بول سارتر: "لا يتوجه إلى قارئ عالمي، بل إلى قارئ في وطن خاص، في موقف محدد - الحديث عن الحرية في معناها التجريدي لا يجدى، لأنها لا تكتسب معناها الحق إلا في موقف معين - الحرية في معناها الإنساني مقيدة، بما يتخلى المرء عما يضر بحرية الآخرين، كل الأعمال الأدبية محتوية في نفسها على صورة القارئ الذى كتبت له"<sup>(1)</sup>.

بهذا لا تطفى حرية الكاتب على حرية من يكتب لهم، إذ هي حرية مشروطة ومقننة، عبر العرف الاجتماعى والتقاليد السائدة، والقيم الموروثة، حتى وهو يكتب لنفسه أو يعبر عنها. "الحرية إذن مسئولية، والمبدع، بالتالى، مسئول عن ممارسة حريته، لأن ما يكتبه المبدعون هو انعكاس لنفوسهم من الداخل، ويعبر عن محتوهم الثقافى والفكرى والدينى، ونظرتهم للحياة بما تمليه عليهم ميولهم ورغباتهم وتوجهاتهم، باختصار نتاج الأديب هو شخصيته، لذلك يتجه علماء النفس إلى تحليل شخصيات المبدعين الراحلين وتحديد سماتها من خلال تحليل كتاباتهم، على اعتبار أنها تمثلهم، فالإنسان السوى لا يقول إلا ما يعتقد"<sup>(2)</sup>.

(1) ما الأدب؟ ترجمة د محمد غنيمى هلال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة

1986، ص79

(2) نوال مهسى مقال بعنوان (حرية الإبداع المثرى عليها) صحيفة

الأهرام 2001/5/8

ومن هنا "فليس بخاف أن الأديب عندما يعبر عن أفكاره ومشاعره، فإنه لا يعبر عن تلك الأفكار والمشاعر في عزلة عن الواقع الاجتماعي المحيط به، إنه لا يقدم للقارئ تلك الأفكار والمشاعر مجردة، بل يقدمها في سياق، أو أحداث، أو مواقف، أو علامات اجتماعية"<sup>(1)</sup>.

يقول الدكتور عبد الله حسين: "إذا كان بعض كتابنا المعاصرين يختارون الجانب المنحل من المجتمع ليقفوا إلى جواره، مدافعين عن أهدافه الممقوتة، وغاياته الشريرة، وأساليبه الحقيرة، فإن ذلك يشكل أزمة حقيقية لا شك في ذلك.. أزمة من الضمير الأدبي والتثاقفي عند الكاتب، قبل أن تكون أزمة الافتئات على حرية الإبداع"<sup>(2)</sup>.

ثم يضيف: "وإذا كان الإخلاص مطلوبًا في كل أمر، فهو أشد ما يكون ضرورة للأدب والأدباء، فكلما كان الأديب صادقًا مع نفسه وربه، بصيرًا بالأمور، مخلصًا في غايته، واعيًا بمخائيق الحياة المغيبة، وسط أكوام الضلالات، ومتاهات الأهواء والانحرافات، ومزلق الشهوات والشبهات، كان على درجة بالغة من الحساسية الحميدة التي ترقى به إلى قمة التعبير والتصوير والتأثير"<sup>(3)</sup>.

ومن ثم فإن الأمر كله مرجعه إلى الضمير الأدبي للكاتب، وتقديره الواعي لما يبثه في نفوس الناس، كما أن للمتلقى هو الآخر الدور الأكبر إزاء نتاج هذا الضمير وقبوله .

(1) يوسف ميخائيل أسعد: سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص 41.

(2) مقال بعنوان: أزمة الأدب وحرية الإبداع) صحيفة الأهرام 2001/3/2

(3) السابق والصفحة

وإذا كان الضمير الثقافي والأدبي قد يهتز أحياناً لدى بعض الكتاب، نتيجة لتأثرهم (بأيديولوجيات) قد تصل بهم إلى درجة من التعصب والانحياز، فهنا يكون دور النقد، بوصفه موازياً للإبداع وصاحب الكلمة الأخيرة، مادام نقداً مجرداً من الغاية، لا نقداً تسوّد به صفحات الصحف والمجلات، بعيداً عن الغايات الشريفة التي هي من مقتضيات النقد والكلمة الأمينة، دون تماون أو تهويل أو مزايدة .

لقد التبس كثير من المعايير أمام البعض، ممن توهموا أنهم وحدهم أصحاب الكلمة، وأصحاب الرؤى الصحيحة دون غيرهم، وأن ما عداهم لا يرتقى إليهم، جهلاً وتخلفاً، فكانت أن اختلطت الأمور، إذ وصلت أحياناً إلى حد المعارك والصراعات والتعصب للرأي، حتى لو كان رأياً ساذجاً أو مسطحاً أو تافهاً.

لقد خلط البعض من كتابنا، أو بمعنى آخر مبدعينا، أو بمعنى ثالث ممن تحيزوا تحيزاً أعمى لكل ما هو وافد من الغرب، دون بيان الغث من السمين!! بين الحدائث والحضارة، معتقدين - بجهلهم - أن الحضارة أو الحدائث مرادفة للتحلل، وأن هذا التحلل هو معيار الحدائث والوجه الآخر للحضارة، آخذين من هذه الحضارة وتلك الحدائث الغربية الوجه القبيح دون الجوانب الأخرى، هم يأخذون منها وجه الشر وحده، وينفرون في الوقت ذاته من وجوه الخير المتعددة الروافد والأصول، وإن كان الغربيون أنفسهم قد نفروا من تلك الجوانب، التي ظنّها البعض دليلاً على الحرية والتطور والارتقاء، ومع هذا لا يشكل ذلك في مجمله ظاهرة، إذ صنف معظمه تحت كتابات لم تكن أبداً معياراً على الآداب الغربية نفسها.

والسؤال للغر هو : لماذا نربط دائماً، أو بمعنى آخر : لماذا

يربط دائماً بعض مثقفينا، أو ممن صنفوا أنفسهم هكذا - ربما طبقاً لمكانة بعضهم، وتصدر صورهم صفحات صحفنا ومجلاتنا - بين الحدائثة والتحليل؟ أو بين حرية الأدب والإبداع، منحازين لهذه الزاوية وحدها؟! أى أن حرية الكتابة والإبداع والأدب، هى عندهم مرتبطة بالجنس والتحليل، ويركزون دائماً على تلك الناحية دون غيرها، ويدعون أن الحرية والحضارة والحدائثة، هى أن يطلق العنان للأديب فى أن يقول ما يروق له، حتى لو جاء بفتات من الغثائفة والزيف والتفاهة والبهتان .

هل الحرية مقصورة على هذه الزاوية فحسب؟! أم أن الحرية لها جوانب متعددة، أكثر إشراقاً وسمواً، كأن تكون حرية السرى والتعبير عنه، أو حرية الكتابة فى مجالها المتعددة، وهى كثيرة ومتشعبة!؟

وهنا تتوالى أسئلة أخرى: أى وجه للحضارة والتحضر أو الحدائثة فيما يعرض علينا أحياناً من كتابات غثة فجة قبيحة، قد تسخر أحياناً من قيمنا وتقاليدنا وأعرافنا، أو تعرض علينا صوراً من الغثائفات التى تدور حول الجنس، فى نهج تأباه النفس، وتصل به إلى درجة من الاشمزاز والنفور والغثيان، تلك النفس التى كرمت فى خصوصياتها، فلم تُبج هذه الخصوصية للمرضى والشواذ، يعبرون عنها كما هى، وينتهكون حرمتها، تحت دعاوى شائنة، هى أبعد كثيراً عن الأدب والإبداع، دعواهم قائمة على أن هذا قد حفلت به الأعصر، وإن كان هذا حقاً، غير أنه لم يكن ظاهرة أو نهجاً يألفه الناس، وإنما كان فى أدراج الخاصة دون شيوع .

حتى لو كان فى كل عصر شيء من هذا، أيقننى به مجرد أنه كان؟! لماذا يقننى بالسئى والتافه على حساب القيم والأصيل!؟

إن زوايا التعبير وجوانبه متعددة الروافد والاتجاهات، فإذا جاء شيء من هذا في سياقه فلماذا لا يعبر عنه تعبيراً سامياً، غير مفتعل للإثارة، فإذا لجأنا إلى الكناية الرامزة، فعبرنا بالصور الخبيثة، قد يكون ذلك جيلاً دون كثير من صور مسفة، ولدينا الأمثلة في كتبنا الراقية، هي أمثلة جامعة، مع سريانها في مجال الجسد وشطحاته، لا نجد فيها لفظاً مسفهاً أو من شأنه أن يחדش حياءً أو يجرح شعوراً.